عشية العشرين من آب الماضي أطلقتْ سبعُ سفنٍ حربية أمريكية سبعين صاروخاً، من طراز كروز، سقط ثلثان منها في مواقع من أفغانستان، وسقط الثلثُ الأخير على الخرطوم عاصمة السودان. وقد يبدو الاعتداءُ الأمريكي فعلاً إجرامياً أملاه سياقٌ خاص، عنوانُهُ محاربةُ «الإرهاب» وحصارُ الرئيس الأميركي بفضيحة أخلاقية، وعنوانُهُ أيضاً تفرُّدُ الولايات المتحدة في السيطرة على العالم وتقرير شؤونه. غير أنّ استعانةً واهنةً بالذاكرة تُقصي سريعاً التصوُّر السابق، وتعيد الأمور الى حيث يجب أن تكون؛ ذلك أنّ ما قامت به الولايات المتحدة، المستنجدة بسفنها الحربية دائماً، يستأنف سياسةً لا جديد فيها.

مصنع الشفاء في الخرطوم

قصف الخرطوم:

الصواريخ الأمريكية والمستضعفون في الأرض... على الأقل

فيصل درّاج

ففي الخامس عشر من تموز عام ١٩٥٨، أنزلت الولايات المتحدة خمسة عشر ألفاً من مشاة البحرية الأمريكية على شواطئ بيروت، اتكاءً على حجج متعددة، تقول تارةً بالتصدّي للمدّ الشيوعي، الذي بدأ يطرق أبوابَ عاصمةٍ شرقيةٍ أنيقة، وتزعم تارةً أخرى حمايةَ التعايش بين الجماعات الدينية في لبنان. وكان في سياق ذلك الزمان ما يحرّض البيتَ الأبيضَ على الأخذ بسياسة استعراض القوة، وهي سياسةٌ لم تفارق البيتَ الأبيض أبداً. فقد كان عبد الناصر يحرّض الشعوبَ العربيةَ على الوقوف، وكان الفكرُ القوميُّ يَعِدُ الإنسانَ العربي بأشياء كثيرة، إضافة إلى تكسّر الحكم الملكي في العراق... ومع أنّ السياسة الأميركية لا تحب الشعوب التي تثور على مضطهديها، فإنّ إنزال مشاة البحرية الأمريكية في بيروت كان ينطوي على أسباب وغايات أخرى.

وبعد عشر سنوات من التاريخ السابق تقريباً، أمدّت الولاياتُ المتحدةُ إسرائيلَ بكل ما تحتاجه، كي تُنزل بالعرب الهزيمةَ الأكثرَ خطراً منذ قرون، وهي هزيمة الخامس من حزيران عام ١٩٦٧. ومع أنّ تلك الهزيمة نزعتْ مخالبَ الشعب العربي وأسنانَهُ ورموشَهُ إلى أمد طويل، فإنّ الولايات المتحدة «أنزلتْ» قواتها البحرية مرةً أخرى في بيروت، بعد خروج المقاومة الفلسطينية منها في عام ١٩٨٢، متذرِّعة، مرةً أخرى، بحجج «التعاون والاستقرار والأمن ومحاربة الإرهاب». وعلى الرغم من أنّ القوة الأمريكية لم تحصد في بيروت إلا الموت، فإنّ الرئيس رونالد ريغن ما لبث، وبعد أربع سنوات، أي في عام ١٩٨٦، أن أطلق صواريخه على عاصمة

عربية أخرى، هي طرابلس عاصمة ليبيا، ساعياً هذه المرة إلى «اجتثاث الإرهاب» من أصوله، بعد أن جعلت الصحافةُ الأمريكيةُ، ومَنْ يماثلها في العقيدة والهدف، من الرئيس الليبي عنواناً للشرّ وصورةً عن الشيطان.

وانطلاقاً من جدل غطرسة القوة وترويع المستضعفين، أكملت الولاياتُ المتحدة مسيرتها في «تأديب مواقع الإرهاب»، وهي مواقعُ عربيةٌ ومسلمة دائماً، فضربت العراقَ، ولا تزال تضربه، منذ بداية التسعينات حتى اليوم. ومع أنّ العراق ضحيةٌ جاهزةٌ دائماً، اعتماداً على الغطرسة وإهلاك العربي الضعيف وقرارات «الشرعية الدولية» أيضاً، فإنّ بيل كلينتون شاء أن يضفي ألواناً جديدة على «تأديب العواصم العربية»، فاختار بلداً عربياً جديداً هذه المرة هو «السودان. ومثلما أنّ العراق ضحيةٌ جاهزةٌ أبداً، إذ ينبغي تدميرُها تدميراً شاملاً لأنها تمتلك «أسلحة الدمار الشامل»، فإنّ الحجة الأمريكية المبرِّرة لضرب العالم العربي جاهزةٌ أيضاً، يستوي في ذلك البلدُ المُحدَّثُ بـ «القومية» والبلدُ الآخرُ المحدَّث بـ «الإسلام». والحجة النافذة التي لا تطاوَل هي: «محاربة الإرهاب»، كما تعيّنه وتقرّره وتحدّد معالِمَهُ الولاياتُ المتحدة، بعيداً عن الوقائع والبراهين والمستندات. ولأنّ تعيين دلالة الإرهاب يعود إلى مشيئة مَنْ يقرّر معنى الإرهاب، تقع الصواريخ الأمريكيةُ على العراق وليبيا والسودان، وإنْ كان مَنْ يطلقها يرغب بسقوطها فوق سوريا وكوريا الشمالية وإيران وكوبا، وكلِّ مَنْ يَردُ اسمُهُ في «القاموس الديمقراطي» الذي تكتبه يدٌ أمريكية.

*

وبغيةَ إيضاح الصورة ينبغي العودةُ إلى زمن مشاة البحرية الأمريكية، الذين نزلوا فوق شواطئ العاصمة اللبنانية قبل أربعين عاماً. ففي ذلك الزمان برّر الأمريكيون عملهم بالقول إنّ لبنان «موقع حيويٌّ... للتأثير الأمريكي». فهو، أيْ لبنان، موقع بالغ الأهمية في العالم العربي، لا لتأمين مرور النفط القادم من الخليج العربي، بل لتأمين الإشعاع الفكري الأمريكي، الذي ما ذكره الأمريكيون يوماً إلا وعَطَفوا عليه صفةَ «الديمقراطية»... كل ذلك إضافة إلى حماية «التعايش الطائفي». غير أنّ الباحثة الأمريكية إيرين جندزير، في دراسة حديثة لها عن «التدخّل الأمريكي في لبنان والشرق الأوسط» (**لوموند ديبلوماتيك**، تموز ١٩٩٨)، تكشف عن خداع المزاعم الأمريكية في أكثر من اتجاه. فالتدخل الأمريكي في لبنان كان قد أُعِدّ له منذ زمن طويل، مستهدفاً أمرين: أولهما تحويلُ لبنان إلى بلد يخضع كلياً للسيطرة الأمريكية، لأسباب لها علاقة بمخططات واشنطن؛ وثانيهما تقليصُ النفوذ البريطاني والفرنسي في الشرق الأوسط.

يوضّح «الدرسُ اللبناني» السابقُ بداهةً لا تحتاج إلى توضيح، قوامُها الفرقُ بين الأهداف الأمريكية الحقيقية والمزاعم المعلنة. ومع أنّ هذا الفـرق يندرج في «المكر السياسي» كما يذهب بعضُ «دهاة السياسة»، فإنّ خصوصية الولايات المتحدة رفعت المكرَ إلى مرتبة الصنعة اللاأخلاقية الكاملة. فإضافةً إلى القوة الأمريكية المترامية، ووجهُها الآخر الغطرسةُ المطلقةُ السراح، ثمة تقاليد التدخل الأمريكي في جميع أنحاء العالم، مباشرةً تارة، أو عن طريق وسيطٍ تارةً أخرى: في بورما، وكامبوديا، وغواتيمالا، والدومينيكان، وأندونيسيا، والفيليبين، والصومال، وزائير (الكونغو كينشاسا)، وشيلي، وصولاً إلى أفغانستان والسودان. وإذا كان «دهاةُ السياسة» يرون في حَجْب الهدف جزءاً ملازماً للفعل السياسي، فإنّ الفعل السياسي الأمريكي ـ وقوامُهُ الحربُ التي تنفي السياسة ـ قد وقع على منهجين يوافقان أغراضه تماماً.

ينطوي المنهج الأمريكي الأول على: «أَبْلَسة العدو» بلغة تشومسكي، ويتكئ المنهجُ الثاني على «القوة المبرِّرة للكذب» بلغة كيسنجر. وفي حدود المنهج الأول يتم تخليقُ العدو بشكل جديد، كي تستدعي صورتُه المخلوقةُ العقابَ والتأديب، أو كي يكون العقابُ هو «الردُّ الإنسانيُّ ـ الديمقراطي» الوحيد على أفعاله الآثمة. وعندما يكون على العدو أن يصبح إبليساً وشيطاناً أسود، تأمر الفضيلةُ بحرقه وتدميره. و«أَبْلَسَةُ الخصم»، التي تسبق الاعتداءَ المسلح وتمهّد له، أخذتْ في الممارسات الأمريكية أشكالاً متعددة. فقد تمّ قصفُ طرابلس الغرب بعد أن مُنح القذافي صفاتِ «موسوليني» و«حامي المخرِّبين» و«راعي الإرهابيين»، وصولاً إلى الزعم بسعيه الشخصي إلى اغتيال رونالد ريغن! ولم يكن مسارُ صادم حسين، كما ترسمه الصحافةُ الأمريكية، مختلفاً، وإنْ كانت هذه الصحافة تعيّن اللحظات التي ترى فيها صدام حسين ديكتاتوراً، واللحظاتِ الأخرى التي تراه فيها «نصيراً للديمقراطية». وما صورة السودان قبل أن تَسْقط صواريخُ كروز على مصنع الأدوية في الخرطوم، إلا امتداد لفعل «الأبْلَسة» وتخليقِ الشيطان. ولعل هذه الصناعة الكاذبة هي التي تجعل البيتَ الأبيضَ يرى في مصنع للأدوية مصنعاً لصنع المواد الكيميائية الخطرة.

يقول كيسنجر: «تستطيع أن تكذب حين تكون قوياً». والسياسي الأمريكي، الذي درس «مترنيخ»، يُبَسِّط في قوله الأمورَ تماماً، حتى تكاد صنعةُ «الأبلسة» تتحول إلى زخرف

بعد بيروت وبغداد وطرابلس والخرطوم، أيُّ عاصمة عربية جديدة ستستبيحها الصواريخ الأميركية؟

نافل، ما دامت القوةُ تتكفّل بتعيين الحق وتحديد الضلال أيضاً. لا شيء إلا وتبرّره القوةُ، والقنابلُ نصيبُ مَنْ يعترض على التبرير. وبسبب «مصداقية القوة» تُسْتَباح سماءُ السودان، وتتحول الأدويةُ الضرورية للمرضى إلى خطر فادح. وبسبب «مصداقية القويّ الكاذب» تُفاجأ الإدارة الأمريكية بمدى «الصمت العربي»، باستثناء قلةٍ قليلةٍ أوضَحُها الموقفُ السوريُّ. وأسباب الصمت واضحة، مادامت واشنطن تضرب «مراكز الإرهاب»، وما دام فعلُ الضرب يصدر عن طرف تَضْمن قوتُه قولَ الحقيقة.

وهكذا تتحالف الأَبْلَسةُ والكذبُ القوي كي يحوّلا الاعتداءَ الأمريكي المسلَّحَ على الأرض العربية تقليداً ثابتاً، يعادل في ثباته الاعتداءَ الأمريكيُّ على الشعوب. غير أنّ هذا الثبات، ومنذ زمن ريغن، قد وقع على مفردات جديدة، تتنوّع، كثيراً أو قليلاً، من دون أن يغادرها مصطلحُ «الإرهاب» قطّ. ففي زمن جيمي كارتر خرج من خزائن الأبلسة تعبير: «حقوق الإنسان»، وهو تعبير يعني أنّ خصم الولايات المتحدة تنقصه الإنسانيةُ. وبعد أن سقط كارتر في «رمال إيران»، خَلَفَهُ رونالد ريغن، الذي أطلق من جراب الفضيلة مصطلحاً ذهبياً جديداً، هو: «إمبراطورية الشر»، التي على «إمبراطورية الخير» أن تزيلها عن وجه الأرض. وجاء بوش بمصطلح: «النظام الدولي الجديد»، الذي يعني أنّ على مَنْ يستحق الحياة أن يمتثل بلا شرط للإرادة الأمريكية، فإن لم يقبل ردَّهُ السلاحُ الأمريكيُّ إلى أسفل سافلين؛ و«رأسُ الذئب المقطوع» ملقى في شوارع بغداد إلى اليوم. وبعد أجيال عديدة من «المصطلحات الديمقراطية»، وفد بيل كلينتون وقد أخرج من جيبه مصطلح: «محاربة التطرف»، ومعناه الأخير والوحيد هو التطرّف الإسلامي، بغضّ النظر عمّا إذا وُجِد صربٌ يغتصبون الأطفال، أم وجِد إسرائيليون يبتلعون القدسَ شارعاً بعد شارع!

*

لقد تمَّ ضرب السودان باسم محاربة الإرهاب. ونقيضُ الإرهاب هو الطمأنينة والسكينة والأمان؛ وهي أمور من حق البشر جميعاً. كما أنّ محاربة الإرهاب ـ إذا كان ذلك صحيحاً ـ تستدعي طرائقَ وسبلاً ووسائلَ لا تنتمي إلى الحقل الإرهابي؛ ذلك أنه لا يمكن محاربة الرذيلة بالرذيلة. غير أنّ الولايات المتحدة، المعتمدة على القوة التي تسوِّغ الكذبَ، تقلب الأمورَ تماماً، أي تمارس إرهاباً حقيقياً ضد إرهابٍ وهمي، تاركةً الإرهابَ الحقيقي مطمئناً، بل جاعلة منه حليفاً لا يمكن الاستغناءُ عنه. يقول رئيس الوزراء الإسرائيلي نتنياهو: «نعتقد أنّ الرئيس كلينتون فَعَلَ الشيءَ الصحيحَ تماماً. نحن الآن نؤيّد تلقائياً الولايات المتحدة حين تردّ على الإرهاب... إنّ ذلك لا يكون في خطوة واحدة؛ إنه يستلزم جهداً متواصلاً. وهذا ما نتوقّعه من السلطة الفلسطينية». أما ضابط الشرطة في القدس أركادي مارغوليس فيقول: «أريد أن أقول للشعب الأمريكي إنه يجب أن يشعر بالفخر لأنّ لديه هذا الرئيس العظيم؛ إنّه رجل بحقّ، بطلٌ، يكافح الإرهاب» (**النهار** اللبنانية ٢٢ آب).

إنْ كانت الأمورُ تتعرّف بنقائضها، فإنّ الموقف الإسرائيلي من إرهاب الدولة الأمريكي يحدّد معنى الإرهاب تماماً. فالإرهاب في الموروث الصهيوني، الممتدّ من دير ياسين وابتلاع الأرض الفلسطينية ومجزرةِ الخليل وبحر البقر في مصر وصولاً إلى قانا في لبنان، يعني إفناءَ كلِّ مَنْ يدافع عن حقّه في الوجود، بل يعني استئصال كلِّ مَنْ يلجأ إلى المقاومة ليواجه الاحتلالَ والحصارَ ومصادرة القرار الحر. ولذلك يكون كلينتون بطلاً، ويكون على أصحاب مقاليد الأمور في السلطة الفلسطينية أن يتحوّلوا إلى أبطال، أي أن يقوموا بقطع أصابع كل فلسطيني يقاوم الاحتلال. لقد أَسْقط ريغن، متحصّناً بالقوة والكذب القومي، المشروع الساندينيَّ النبيلَ، الذي أسقطَ إحدى الديكتاتوريات الأكثر وحشيةً وبذاءةً في أمريكا اللاتينية. ورئيسُ الوزراء الإسرائيلي، الذي ينتمي إلى قيم ريغن ومعاييره، يحلم بـ «ساموزا» جديد، بعد أن حَمَلَتِ الانتفاضةُ الفلسطينية المقوَّضةُ شيئاً أو أشياء من أحلام ساندينو القديم، الذي قتله الأمريكيون قبل أكثر من ستين عاماً بقليل.

لقد كتبتْ صحيفة **الشرق الأوسط** (٢٢ آب ١٩٩٨):

«...ويتضح بعد جولة داخل مصنع دار الشفاء للأدوية في الخرطوم ومحيطه أنّ الضربات التي وجهتها إليه الطائراتُ الأمريكية قوّضته وحوّلته إلى ركام من الطوب الأحمر وكتل الاسمنت والحديد... وتقع إلى شمال المصنع، وعلى بعد ١٨٠ متراً منه، محطةُ توليد كهرباء منطقة بحري. وقد حوّل القصفُ الزنكَ إلى حزمة متفحّمة تهتز مع هبوب الريح، بينما بدا الجزءُ السفلي كما لو كان قد اقتُلع بكامله بآلةٍ وأُسْنِدِ

هل تكون محاربة «الإرهاب» بحرق الدواء وتوليد الظلام وتحويل ما بناه الإنسان إلى ركام؟

إلى بعض العارضات الحديدية». هذه هي الآثار «الديمقراطية» لمحاربة الإرهاب: حرق الدواء، وتوليد الظلام، وتحويل ما بناه الإنسان إلى ركام! وهذا هو الردُّ على «التطرّف الإسلامي»، كما لو كان تاريخُ الولايات المتحدة هو تاريخ دعم العقلانية والديمقراطية والعلمانية والسياسات الحديثة!

لقد تعاملت الولاياتُ المتحدة دائماً مع «الحركات الإسلامية» بمنطقٍ براجماتيٍ شديدِ الفجاجة، يرى المصلحةَ الأمريكيةَ ولا يرى من مصالح الشعوب شيئاً، إن لم يبنِ دائماً المصلحةَ الأمريكية على ركام المصالح الأخرى. وأكثر من ذلك: إنْ كان «الإنسانُ الأبيض»، وهو يغزو المكسيك وأمريكا الشمالية، قد أعاد خلقَ الإنسان المهزوم محدِّثاً سهواً عن «المتوحش النبيل» تارةً، وعن المتوحش الذي حلّت فيه روحُ الشيطان تارة أخرى، فإنّ «الديبلوماسي الأمريكي» المهتم بـ «ما هو تحت الأرض العربية» لا بما هو فوقها (كما أعلن شوارزكوف ذاتَ مرة) قد ميّز، وفقاً للأحوال، بين «إسلام رحيم» يستوجب النصرةَ والعطفَ حيناً، وبين «إسلام رجيم» تحلّ عليه اللعنةُ والمطاردةُ أحياناً أخرى. فمن يعدْ إلى كتابات بريجنسكي في السبعينات يعثرْ على ما يحدِّث عن «العامل الإسلامي»، أي عن توظيف الإسلام المهني في محاربة الشيوعية. وبعد عقد من الزمن سيتحدث جورج شولتز عن «احترام أمريكا للتقاليد الإسلامية»، هذا «الاحترام» الذي يمنع الإدارة الأمريكية من مطالبة النظم الإسلامية بممارسة «الديمقراطية»، لأنّ التقاليد الإسلامية - في التصور الأمريكي - لا تقبل بالمثل الديمقراطية ولا تتعرّف عليها... إلى أن يأتي وقت تترنّح فيه «امبراطورية الشر» وتقع، ويصبح «العاملُ الإسلامي» بحاجة إلى توظيف جديد.

ولعلّ «العامل الإسلامي» هو الذي رحّب بتأويلٍ شكلانيٍ للإسلام، يؤكّد الإيمانَ والعبادات و«وحدةَ أبناء السماء»، ولا يرى من القضايا اليومية المشخّصة شيئاً. ولعلّ هذا «العامل» أيضاً هو الذي جعل رونالد ريغن يتحدّث عن «أبطال الحرية» في أفغانستان، وهو الذي أقام وصلاً (مرئياً أو غير مرئي) بين «الإسلام الجزائري» والإدارة الأمريكية، وأقام لقاءً مرغوباً بين تيارات إسلامية في مصر والبيت الأبيض، وصولاً إلى موسوعة **أسلمة العلوم** (الصادرة في مدينة أمريكية)، إضافةً إلى «الأممية الإسلامية» التي تتأمل شؤونها وترتّب أوضاعها وهي آمنة في الديار الأمريكية! إنْ كان الأمر كذلك، فما الذي جعل الولايات المتحدة تطلب رأسَ أسامة بن لادن، الذي لعب دوراً مميَّزاً في إعداد «العرب الأفغان»، أي العربِ المسلمين الذين «هبّوا» إلى نصرة الإسلام في بلدٍ إسلاميٍ وقع تحت أظلاف الكفر والشيطان؟

قد تكون هناك عناصر خارجية متعددة، مثل أيديولوجيا قمع العقول التي توحّد الشعب، والتي تحتاجها الرأسمالياتُ الغربيةُ قبل انهيار الشيوعية وبعده. وقد تكون هناك نزعةٌ صليبيةٌ تتزايد مع انحطاط القيم والأفكار في العالم الغربي وغيره أيضاً. وقد يكون اتساع الحركات الإسلامية وتشجُّرها بحيث يَعْسُر ضبطُها والتحكُّم بها. وقد تكون هناك أشياء كثيرة لا توضّح الأسباب تماماً، وإن كانت جميعُ الأسباب تردّ إلى المصلحة الأمريكية، المدعومة بسياسة غطرسة القوة وأبلسة الشر.

ففي الوقت الذي كان فيه البيتُ الأبيضُ يدعم «مقاتلي الحرية» في أفغانستان قبل حوالي عشرين عاماً، ذهب بن لادن إلى أفغانستان، وأنفق أموالاً طائلة لمحاربة «الكفر السوفياتي»، مجنِّداً ما يقارب عشرة آلاف مقاتل، وأقام قواعد خاصة به في نانجارهار وكونار ولوجار. وأقام أيضاً قاعدتيْ بَدْر الأولى وبَدْر الثانية، ومخابئ تحت الأرض تتسع لأربعمائة مقاتل. ولا تزال بعضُ قواعده قائمةً إلى اليوم لتدريب «العرب الأفغان» الذين يقع على كواهلهم نشرُ الدعوة الإسلامية. فما الذي كسر هذا التحالفَ الذهبيَّ المقدَّسَ بين أجهزة الإدارة الأمريكية وبين عربٍ مسلمين «هبّوا لتحرير ديار الإسلام في أفغانستان»، ممهّدين الدربَ «لتحرير ديار الإسلام في فلسطين»؟ الإجابة بالتأكيد عند البراجماتي الأمريكي، الذي «يحترم العقائد الإسلامية» في أفغانستان ولا يكترث مطلقاً بمقدَّسات المسلمين في فلسطين.

ومع ذلك، فإنّ بعض المحللين، وبلغة لا ينقصها الغموض، يقول: «إنّ أمريكا تحتاج إلى بن لادن، بقدر ما يحتاج بن لادن إلى الإدارة الأمريكية». فهي بحاجة إليه كي تقوم بقصف ما شاءت من المناطق الإسلامية، وبفرض ما شاءت من الأوامر والسياسات، بحجّة محاربة الإرهاب والمتطرفين. وهو بحاجة إليها كي يبقى حاضراً في عمله الإسلامي، وفي

استقطاب جماهير تحلم بالجنة ومحاربة الفسق وتكسير التلفزيونات المضلِّلة. وربما يكون بن لادن، وقد هُزم «الكفرُ السوفياتي»، اكتشف أنّ حلفاءه لا يُسعفونه في تقريب موعدِ تحقيق «مشروعه الإسلامي»، خاصة أنّ البيت الأبيض قد غيّر موقفه قليلاً من «الطالبان» ومن «الإسلام المقاتل» في الجزائر، بل انقلب على «الحكم الإسلامي» في السودان... ومهما يكن حسبانُ بن لادن، ومعه «كتائب المسلمين»، فإنّ السياسة الأمريكية لا تزال مخلصةً لتقاليد «المتوحش النبيل»، وهو «المتوحش» الذي هُزِم وأدمن الأفيون، و«المتوحش الخالص»، الذي إن رأى جندياً أمريكياً ذهب إلى سلاحه حتى لو كان مثلوماً.

*

إنْ كانت فلسفة القوة الأمريكية تُقيم هوّةً فاغرةً بين الوقائع والحقائق والمرئيّ واللامرئيّ، فما هي أسبابُ ضرب الخرطوم بالصواريخ؟ أو: إنْ كانت حجةُ الإرهاب تحيل على أمر آخر يتجاوزها، فما هو هذا الشيء الذي يلوذ بحجة الإرهاب؟

ربما يقوم الجواب في اتجاهين، أحدهما محمّلٌ بالرسائل الكثيرة، وثانيهما يحيل على عالم عربي كلما حاول تجميعَ أوصاله المقطّعة قطّعها من جديد. ينطوي الجواب الأول على جملة رسائل مفتوحةِ الاتجاهات مثل: منع المصالحة بين مصر والسودان، إن كانت محتملة، لأنّ مصالحة كهذه تقوّي من وضع مصر وتدفع بالنظام السوداني إلى سياسة أكثر حكمةً وتعقّلاً، الأمر الذي يمكن أن يترك آثاراً إيجابيةً على وحدة السودان المعرَّضة للتبدّد. وإضافة إلى ذلك، هناك رسالة موجّهة إلى النظام السوداني نفسه، الذي عليه إن أراد أن يتفادى صواريخ قادمة أن يكون متساهلاً مع القوى الرافضة له في جنوب السودان، والتي تسعى إلى الانفصال عن السودان وإقامةِ دولةٍ مستقلة خاصة بها. وهناك إنذار جديد إلى العراق، ما دام قصفُ عاصمة عربية بالصواريخ أمراً سهلاً ولا يؤدي إلى شيء، بل إنه لا يستولد من الاستنكار العربي إلا قليلَ القليل. وهناك أيضاً رسالة موجهة إلى بعض أنظمة الخليج العربي، التي تسوّل لها نفسُها أن تحسِّن علاقاتها مع إيران؛ ذلك أنّ الأخيرة رغم تغيّر بعض سياساتها لا تزال «دولةً إرهابية» بالمعنى الأمريكي لمصطلح الإرهاب. ومع أنّ بعض الصحفيين يُرجع الهجوم إلى مصاعب كلينتون الشخصية التي ألقت عليه عشيقتُهُ السابقةُ بملابسها القذرة، فإنّ شظايا الصواريخ الأمريكية لا تصيب إلا العواصم العربية، كما لو كان على هذه العواصم أن لا تقطع خيطاً من دون المشيئة الأمريكية.

أمّا الاتجاه الثاني فيترجم، من دون اكتراث، أوضاعَ العالم العربي الذي تتساقط فوق عواصمه صواريخُ أمريكيةٌ متعدّدةُ المضامين... والسؤال المباشر هنا هو: لماذا يبدو كلينتون فاعلاً وسريع الفاعلية، إلى درجة الإدهاش، وهو يعالج «الشأنَ الإرهابيّ» في السودان، بينما يبدو مُعرِضاً عن «الشأن الفلسطيني» و«مسيرة السلام» ومستهيناً بالأمريْن استهانةً كاملة، تاركاً لأصحاب «الحلّ والعقد»، أي للطرف الإسرائيلي، أن يتصرّف كما يشاء؟ والجواب قائم في عجز العالم العربي وتشتّته وتطامنه، وهو عالم إنْ غفا قارب تخوم الموت، وإن استيقظ لامس حدود الموات. ولعلّ ردود الفعل الرسمية صورةٌ عن هذه الرحلة الكابية بين الموات والموت. ذلك أنّ معظم الأنظمة العربية سارعتْ إلى الثناء على «محاربة الإرهاب»؛ فإن امتلكت قسطاً من الشجاعة اكتفتْ بصمت متلعثم. ومن الغريب، أو الطريف، أنّ «الإرهاب» الذي تحتفل بعضُ الأنظمة بمطاردته هو ترجمة بليدة لدلالة المصطلح في قاموسه الأمريكي، الذي يرى الإرهاب في مصنع للدواء، ولا يرى من الإرهاب في فلسطين والبوسنة وإقليم كوسوبو شيئاً. حتى كاد المستمع البريء أن يعتقد، لكثرة ما يسمع، أنّ الإرهاب صفةٌ ملازمةٌ للإسلام، وأنّ محاربة الإرهاب واجب أمريكي وفريضة على كل إنسان أمريكي! وفي كل هذا يصلُ الإنسان العربي، أو يكاد، إلى شيء قريب من إلغاء الذات، لأنّ من يأخذ بلغة عدوه لا ذات له، ولأن من ينسى مصطلحاته الذاتية لا يحسن التفريق بين الموت والهلاك. وبسبب هذه الذات العربية المستضعفة التي تستعير مفرداتها من قاموس أجنبي، احتلت اسرائيلُ العاصمةَ اللبنانية، وأُمْطِرَتْ بالصواريخ العاصمةُ العراقية، وأُشْعِلَتْ النارُ بالعاصمة الليبية، قبل أن تصل صواريخُ البيت الأبيض إلى عاصمة السودان، بانتظار استباحة سماءِ عاصمةٍ عربية جديدة.

*

تعيسة هي الشعوب التي يدوّرها حاكموها فوق السفّود كي تصل ناضجة إلى أفراد أعدائها. وفي مآل الشعوب العربية ما هو قريب من السفّود الذي يتقي الحاكمُ سخونَتَه بقفّاز أجنبي: قفّازٍ ملعونٍ يلطم وجه الإنسان، ويرمي حجراً على اللغة العربية، ويعبث بأحجار شوارع القدس، ويقلّب أوصالَ المواطن الذي مات قهراً. فإنْ جاء الوسيطُ الأمريكي ألقى الحاكمُ العربيُّ قفّازَ الظلم بعيداً، وغَسَلَ يديْه، ومدّ إلى الضيف الكبير يداً مضمَّخةً بالعطور!

دمشق (فلسطين)